



مقدمة:

قطعة لحم صغيرة، ليس فيها عظم، تحيط بها عظام كأنها خناجر، تتحرك بسرعة ولا تمل، هذه العضلة تورد صاحبها الموارد، بل لا نبالغ إن قلنا أن مصير صاحبها يوم القيمة مرتهن بها، وهي التي تحفظ على العبد أعماله أو تفسدها، هي ملاك العمل كله، إنها اللسان.

1- ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

قال الحسن البصري وتلا هذه الآية: {عن اليمين وعن الشمال قعيد} يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكل بك مكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسانتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفةك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيمة، فعند ذلك يقول: {وكل إنسان ألمنه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتابا يلقاه منشورة * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} ثم يقول: عدل -والله- فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنته ألم الكتاب}، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله/. رواه صالح بن الإمام أحمد في سيرة أبيه. [1]

"لقد عرفنا - في حدود علمنا البشري الظاهر- وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال، وهي تسجيل الحركة والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما وأشرطة التليفزيون. وهذا كله في محيطنا نحن البشر. فلا داعي من باب أولى أن نقيد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة.. فحسبنا أن نعيش في ظل هذه الحقيقة الرهيبة، وهي حقيقة، ولو لم ندرك نحن كيفيتها" [2]

لو كنت تتكلم في موضوع ما ونفسك مرتحلة ولا أحد يراقبك فلا شك بأنك ستتكلم بما تشاء ومع من تشاء، ولكن لو علمت أن أحدهم يسجل لك كلامك أو يbethه لك لراقبت كلماتك وحسبت لها ألف حساب قبل أن تخرجها من فيك، فكيف وقد علمت

بأن عليك ملائكة لا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا وسجلاها عليك، قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: 10-12].

كلماتك حركاتك سكاتك حروفك ضحكتك بكله مسجل عليك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى: {وَقُوْضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيَأْتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَارِبُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} [الكهف: 49].

2- كلمة وكلمة

لو كنت تتكلم في جمع من الناس وأمامك قدر فيه زيت يغلي، وحولك رجال يقولون لك: بكل كلمة تزل بها نقط رأسك في هذا القدر، فكيف ستكون كلماتك؟ وكيف يكون خوفك ووجلك؟

هذا في الدنيا وفي نارٍ فضلت جهنم عليها بتسع وستين مرة، وفوق الأرض، وفي جمع من الناس يسلونك في مصيبتك، فكيف لو كان ذلك في نارٍ تلظى، تكون فيها وحيداً ولا مسلٍ يسليك، وفي قعر تلك النار؟! والله لو نزلت في بئر بعيد بعض الشيء لطارت نفسك خوفاً، فكيف بقعر جهنم؟!

كلُّ هُذَا أَيْهَا النَّاسِ بِسَبِّبِ كَلْمَةٍ قَلَّتْهَا وَلَمْ تَحْسَبْ لَهَا حِسَابًا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ} [3]

وفي رواية غير البخاري: (فَيَهُوَيْ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ حَرِيفًا) [4]

كلمة تبوء بها بسخط الله أنت غني عنها، قال صلٰى الله عليه وسلم: {وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ، مَا يَطْنُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ} [5]

وبالمقابل فإن الكلمة قد يرفعك الله بها درجات ويكتب الله لك بها رضوانه إلى يوم لقاءه، قال صلٰى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا يَطْنُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [6]
وقال صلٰى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَنْتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ) [7]

3- مضيِّعُ الحسنات

إن من أعظم الغبن أن يعمل العبد ويُكَدِّ ويتعجب بجمع الحسنات ثم يأتي ليقرأ صحيحته فلا يجد فيها حسنة، وتزداد الحسرة حسرة إذا وجد في صحيحته سيئات لم يعملها هو، لعلكم تستغربون من هذا الكلام، إذ كيف يجد في صحيحته سيئات لم ي عملها، أوليس الله يقول: {وَلَا تَنْرُ وَازِرَةٌ وَزْرٌ أَخْرَى} [الأنعام: 164].

نعم ولكن هذا العبد أطلق لسانه في الدنيا ولم يبال بما يتكلم، يفرى في أعراض الناس، وينهش بلحومهم، ويُكذب ويُفترى ويغتاب وينم، فيا حسرة عليه يعمل لغيره ويشقى ليسعد أناساً قد لا يكون يحبهم.

إنه الإفلات الحقيقي، الإفلات من الحسنات، القفر من الصالحات، قال صلٰى الله عليه وسلم: (أَنْدُرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟) قالوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: (الْمُفْلِسُ مِنْ أَمْتَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ يَأْتِي بِصَلَادَةٍ، وَصِيَامٍ وَزَكَاءً، وَيَأْتِي قَدْ شَتَّمَ عِرْضَهُ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَيَبْتَ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أَخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطَرَحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَرَحَ فِي النَّارِ) [8]

سئل أحد الصالحين عن رجل كثیر الطاعات لكنه يغتاب! فقال: "عل الله سخره ليعمل لغيره".
نعود بالله من الخسران.

لذلك جاء الشرع بالنهي عن سب الأنسٰس وشم الأعراض، قال صلٰى الله عليه وسلم: (إِذَا سَبَكَ رَجُلٌ بِمَا يَعْلَمُ مِنْكَ فَلَا تَسْبِهِ بِمَا تَعْلَمُ مِنْهُ فَيَكُونُ أَجْرُ ذَلِكَ لَكَ وَوَبَالَهُ عَلَيْهِ) [9]

وقال عليه الصلاة وأذکى السلام: (أَرَبَّ الْرِّبَا شَتمَ الْأَعْرَاضِ..) [10]

وقال أيضاً: (سباب المؤمن كالمشرف على الهمة) [11]

وقال: (المُسْلِمُ مَنْ سَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) [12]

وروى مسلم أن رجلاً سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أي المسلمين خير؟ قال: (من سلم المسلمين من لسانه ويده) [13]

وقال أيضاً: (من أحب أن يُرْجَحَ عن النار، ويُدْخَلَ الجنة، فلتأتِه مَنِيَّته وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يَوْتَى إِلَيْهِ) [14]

4- وإنما مُواخذون بما نتكلّم به؟

عن معاذ بن جبل، قال: كُنْتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه وتحنّسيراً، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار. قال: (لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِيرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقْبِلُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحْجُجُ الْبَيْتَ) ثم قال: (أَلَا أَدُلُّ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُلْهُ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِي الْخَطَيْفَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيلِ) ثم قرأ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، حتّى يبلغ، (يَعْمَلُونَ)، ثم قال: (أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟) فقلت: بلّى يا رسول الله. قال: (رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ) ثم قال: (أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَالِكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟) فقلت له: بلّى يا نبي الله. فأخذ بسانده، فقال: (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا) فقلت: يا رسول الله، وإنما مُواخذون بما نتكلّم به؛ فقال: (ثُكِلْتَ أَمْكَ يَا مُعاذُ، وَهُلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاحِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَسْنَاتِهِمْ؟) [15]

فالتوحيد والصلة والصيام والصدقة والحج والجهاد كل ذلك يحفظه اللسان أو يضيعه، فإذا حفظها فذلك هو الفائز المفلح، وإن ضيعها فيها خيبة الخساران وذلك هو المفلس الذي يعمل لغيره.

إن صلاح اللسان يسري على الأفعال فيصلحها، وفساده يفسدها، روى أحمد بإسناد حسن عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها، وصيامها، وصدقتها، غير أنها تؤدي جيرانها بساندها، قال: (هي في النار)، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها، وصدقتها، وإنها تصدق بالأتوار من الأقط، ولا تؤدي جيرانها بساندها، قال: (هي في الجنة) [16]

5- رجل يبغضه الله

خرج البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيمة حسن الخلق، وإن الله ليبغض الفاحش البذى) [17]

وفي الأدب المفرد وغيره وصححه الألباني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذى) [18]

6- النجاة

روى البيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني، عن عقبة بن عامر الجهني قال: قلت يا نبي الله ما النجاة؟ قال: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطائك) [19]

وورد عن ابن عباس أنه كان يقول: "يا لسان قل خيراً تننم، أو اسكت عن شر تسلم قبل أن تندم" [20]

وروى أحمد وغيره بإسناد حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من صمت نجا) [21]

وقد ذكر الله من صفات المؤمنين المفلحين إعراضهم عن لغو الكلام والأفعال، {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ الْلَّغُو مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: 1-3]

قال صلى الله عليه وسلم: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) [22]

وعن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: (أكثُرُ خطاباً ابن آدم في لسانه) [23]

-
- 1 - ابن كثير/ 7/399
 - 2 - في ظلال القرآن/ 3363
 - 3 - البخاري/ 6478
 - 4 - ابن ماجه/ 3970
 - 5 - ابن ماجه/ 3969
 - 6 - ابن ماجه/ 3969
 - 7 - البخاري/ 6478
 - 8 - أحمد/ 8414، وغيره وصححه الألباني.
 - 9 - السلسة الصحيحة/ 1109
 - 10 - السلسة الصحيحة/ 1433
 - 11 - حسن الألباني في السلسلة الصحيحة/ 1878
 - 12 - البخاري/ 6484
 - 13 - مسلم/ 40
 - 14 - مسلم/ 1844
 - 15 - أحمد/ 345، وغيره وصححه الألباني.
 - 16 - أحمد/ 9675
 - 17 - الأدب المفرد/ 464
 - 18 - الأدب المفرد/ 162
 - 19 - شعب الإيمان/ 784
 - 20 - شعب الإيمان/ 4590
 - 21 - أحمد/ 6481
 - 22 - البخاري/ 6474
 - 23 - الصحيح رقم .534

المصادر: